السنة: الثامنة المجلد: 08 العدد: 02 ص ص: 91- 120
EISSN 2676-1645 ISSN 2543-375X

الحقيقة عند أوغسطين
Augustine's truth

نسيبة مزواد*، جامعة باتنة1
noussaiba.mezouad@univ-batna.dz

تاريخ الاستلام: 2023/01/01 تاريخ القبول:2023/03/08

ملخص:

لم يكن أوغسطين يوما مؤمنا ولم يقتنع بأي دين، كان دائم السؤال رافضا لكل حقيقة مصمتة، أفرغ عقله من كل مسلمة دينية أخلاقية أو أيا كانت طبيعتها، وهنا بدأ بصنع نفسه، عقله، حواسه، خلق نفسه من جديد، افترض الجهل ومنه انطلق باحثا عن الحقيقة، ووجدها، إنه أخطر ما قد يقدم عليه الانسان؛ أن يقرر العيش خاو من أي هوية إلى حين، بل إنما هي ما يجب أن يحمله الانسان معه وهو يطرح أول سؤال، من يضمن أن كل في ذهني الآن هو الحقيقة؟، لم يرفض وجود الحقيقة بل راح يبحث عنها بنفسه دون إملاء سماوي أو وضعي.

الكلمات المفتاحية: الحس – الشك – العقلانية – الخلاص – المسيحية.

Abstract:

Augustine was never a believer and was not convinced of any religion. He was always questioning, rejecting every closed truth. He emptied his mind of every moral, religious postulate or whatever its nature. Here he began to make himself, his mind, his senses. He created himself again, assuming ignorance and from it he set off in search of The truth, and finding it, is the most dangerous thing a person can do. To decide to live devoid of any identity for a while, but rather it is what a person should carry

* المؤلف المراسل

with him when he asks the first question, who guarantees that everything in my mind now is the truth?

Keywords: sense, doubt, rationality, Salvation, Christianity.

مقدمة:

حياة العظماء حياة مسؤولة على الدوام، يحمل صاحبها مطرقته ليحطم بها كل حقيقة جاهزة تعترضه، تلك الحقيقة التي صبت الذات فيها، وفرضت عليها السباحة في حدودها، فأدت لسجن الفكر في قوالب لم يبذل رائدوها أو مديروها عناء تفكيكها وخلخلتها. فوقع العقل في فخ "المعتقد" المتكلس، هنا كان لزاما على العقل السؤول أن يجترح أسئلة جذرية جريئة وعنيفة "تعلق" كل حكم مسبق وفق سيرورة ديناميكية لهوية تعمل على تفكيك ذاتها وإعادة بنائها بصورة متتالية وسلسة أولا، وتفكيك الآخر والذي يكون على مستويين، مستوى تتماهى فيها الذات مع ما كان خارجا عنها، ومستوى تنفصل فيه. ينطلق العقل من الانقلاب على كل مصمت مشكوك فيه بعد مسيرة من الترحال بين المعتقدات والفلسفات والأفكار، فلا يكاد العقل يستأنس لفكرة حتى ينقلب عليها، دائم التنقل بين متون المعرفة باحثا عن الحقيقة.

الحقيقة هاجس الجميع لكن طريقة الوصول إليها هي التي تحدد العظماء من غيرهم، أهي طريقة ثورية تنقلب فيها على كل قديم صار بالتقادم مقدسا، أم يولد بها ثم يستميت في الدفاع عنها دون تمحيص أو حتى مجرد طرح سؤال ثم ينتقد كل من يرى عكس مقولاته.

لم يختلف أحد من المسيحيين حول مكانة القديس أوغسطينوس، إذ نصّبوه أعظم لاهوتي في الألفية الأولى من التاريخ المسيحي إن لم يكن في التاريخ المسيحي ككل، وإلى غاية يومنا هذا يدينون لاستمرار المسيحية له، بل الأكثر من ذلك فإن موسوعية الرجل اللاهوتية جعلت الفرق المسيحية على اختلافاتها الجوهرية تتنازع على ضم أوغسطين إليها، فالبروتستنتية تقول أنه أباهم، والكاثوليكية تقول أنه الذي طور كنيستهم وأوصلها إلى هذه المتانة التي تتميّز بها.

رغم هذا الاتفاق على الجانب اللاهوتي من فكر الرجل؛ إلا أن مشروعه الضخم تعرض للكثير من ردود الأفعال المتناقضة، هنا تتموضع الإشكالية التي

تعرض لها الفكر الأوغسطيني بين من اعتبره ثائرا على المسلمات العقدية والفكرية، باحثا حرا عن الحقيقية بعد أن تخلص من كل ما ورثه من عصره من أحكام مسبقة وعقائد جاهزة، أم إن أوغسطين هو ابن أمه التي أرغمته على اعتناق الدين المسيحي والذي برغم ما عاشه من تجاذبات فكرية عاد لحضن أمه وحضن فكرها الكاثوليكي الصارم؟

مشروع أوغسطين الفكري هو عينه حياته التي عاشها بمراحل مختلفة صنعت كل مرحلة جزءا من مشروعه، لذا من العبث محاولة الحكم على الفكر الأوغسطيني دون الرجوع إلى اعترافاته، هي الفيصل في الحكم على الرجل دونا عن بقية كتبه، لأن الاعترافات هي سيرة الرجل كتبها بنفسه عن نفسه، وفيها ذكر بالتفصيل المنعرجات الفكرية والفلسفية التي مر بها بداية من تاغست قريته المتواجدة في أقصى الجزائري مرورا بأسمى المراتب في قرطاج وميلانو وصولا إلى بونة بعنابة.

1. المنطلقات الفكرية للفلسفة الأوغسطينية

يعتبر كتاب الاعترافات أول مدونة فعلية على شكل سيرة في تاريخ الأدب عموما والغربي خصوصا، كتبها أوغسطينوس ليعرض حياته للناس رذائله قبل فضائله، طرح فيها المنعرجات الفكرية التي مرّ بها والتي صنعت فلسفته ونحتت سؤاله، منذ حمل الكتاب المقدس لأول مرة ورماه إلى غاية حمله مجددا في نهاية رحلته وتقديسه، مرورا بعدة فلسفات مركزية آنذاك من مانوية وشكية وأفلوطينية وأفلاطونية وغيرها. هي ليست سيرة حياة ومراحل مرّ بها بقدر ما هي أهم فلسفات العصر اليوناني والوسيط لسائدة آنذاك والتي تأثر بها ومن ثم انتقدها تحت وطأة هاجس البحث الدائم عن الحقيقة.

13 نوفمبر 354م جاء القديس إلى العالم بتغاست في نوميديا بإفريقيا، بجوار مداوروش وهيبو[عنابة] من عائلة فقيرة، لكن نزيهة، إذ كان أبوه باتريس "الوثني" ذو مكانة مرموقة في مدينته، كونه واحد من القضاة المسؤولين عن تحقيق العدالة، أما أمه مونيكا القديسة فقد كانت "تعلمه الإيمان، لا بكلام ولا بنهي وأوامر، بل بالنموذج والقدوة والممارسة من خلال سلوكها الروحي اليومي، كانت تعي جيدا مدى انطباع السلوك في ذهن الأطفال، فلم تكن

تحتقر صغر سن الأبناء" (البراموسي، د ت، صفحة 23)، مساحة الحرية التي وسعّتها الأم في بيتها أثّر بالإيجاب على شخصية أوغسطين الطفل وجعله حرا في اختيار المعتقد والتوجه الذي يشاء لاحقا.

أما والد أوغسطين فكان كل همه أن يرى ابنه في مراتب الدنيا العليا، إذ كان "يهتم بمستوى ابنه الاجتماعي والعلمي ويتحمل من أجله ما فوق طاقته من نفقات الدراسة والأسفار والمعيشة (...) كل ذلك في سبيل أن يرى ابنه وقد احتل مكانة مرموقة" (البراموسي، د ت، صفحة 25)، وعلى عكس مادية والده، كانت والدته تأمل أن ترى ولدها في مراتب روحية عليا، إبنا للسيد المسيح ناشرا للرسالة. أمام هذا التشظي العقدي الذي عاش أوغسطين في كنفه اختار أن يساير مسيحية أمه، ويحقق مرغما حلم والده بالتدرج في الدراسة على الرغم من كرهه الشديد للمدرسة، لما كان لها من ذكرى سيئة في حياته؛ إذ تلقى ضربا مبرحا وعقابا شديدا بسبب نتائجه السيئة وفشله في دروسه.

طفولة أوغسطين كانت طفولة مرح بامتياز، لعب ولهو وتمتع بملذات الحياة، وانسياق خلف كل ما يلبي نزواته، ويشبع شهواته، وجد سعادته في هذا النمط من الحياة واستمات فيه، فكان حسيا في اختياراته متشبعا بها، حسيا في سعادته، حسيا في تفكيره، تغلغلت الحسيّة شيئا فشيئا في حياة أوغسطين وعقله السؤول حتى استحوذت عليه، في هذه المرحلة الحسية من حياته طالع الكتاب المقدس تلبية لطلبات والدته الملحّة والمتكررة، لكنه ضحك ضحكا شديدا من تفاهة القصص التي وردت في الإنجيل الشبيهة بقصص العجائز المشوقة والساذجة معا، والتي لا تقنع بخيالها الشاطح غير الأطفال الصغار، إذ تعج بالتشبيهات واختلاق الأحداث التي لا يستوعبها عقل، فتقوم بتركيب ما لا يركب إستدلاليا فتخبرهم بأن إنسانا تبادل أطراف الحديث مع حيوان (كما حدث بين حواء والحيّة ننظر سفر التكوين الاصحاح 3)، وتقنعهم بأن هناك بشرا لهم قدرات خارقة لقوانين الطبيعة الصارمة كأن يقوم بشري بفلق بحر إلى قسمين (سفر الخروج 14: 21-25)، أو أن يتحل الماء إلى خمر (يوحنا 2: 1-11)، وإن تغاضى العقل عن كل هذا هل يتغاضى عن ميت يقوم من قبره ويواصل حياته بين الأحياء بصورة طبيعية؟ (يوحنا 11: 38-44)، هي قضايا يقف أمامها

العقل الحسي المادي عاجزا عن إثباتها أو حتى تصديقها، عجز أوغسطين عن استيعاب هذه القصص جعله يرمي النص المقدس لينخرط في نص العالم الحاضر-المثبت أمامه.

نص ركيك لم يعجب الشاب الممعن في الشعر والخطب السياسية، المبحر في كتب التاريخ، الذي وجد أن خطب تولى المفوه الروماني أعظم من أن تقارن بهاذ النص المقدس الفارغ من المتانة والإبداع؛ قال :"بدا لي أنه لا يستحق حتى مقارنته بكتابات تولى العظيمة" (أوريليوس، 2011، صفحة 39)، وذلك أن عقله الحسي عموما تعذر عليه استيعاب وجود كينونة مفارقة بمعنى :"وجود شخص عظيم يصعب على حواسنا إدراكه" (أوريليوس، 2011، صفحة 14)، فقرر تعليق الروح وكل ما هو متعالي ليختار اللعب والفنون والمسرح وكل ما يشبع رغباته الحسية ونزواته الجسمانية حتى يحقق سعادته الآنية، يقول "أنا لا أحب غير اللعب (...ليصل إلى) أول تصور أن الحياة لعبة"، عبة يحاول الانسان الاستمتاع بها قدر الإمكان لتحقيق السعادة التي يبحث عنها الجميع والتي وجدها أوغسطين في المادة.لم يتجاوز الشاب عامه السادس عشر حتى جذبه تيار الملذات التي انغمس فيها وسيطرت على كل معارفه وتوجهاته؛ يقول :"تصاعد دخان رغبات جسدي الدنيئة التي غطت كالسحب قلبي وأظلمته حتى لم أعد أميز بين الصفاء الواضح للحب وغشاوة الهوى والشهوة(...) فانغمست في شهوتي وظللت وتناثرت أشلائي، هويت في بئر الدعارة" (أوريليوس، 2011، صفحة 14)، فأصبح شغل الشاب الشاغل هو الإلمام بأكبر قدر ممكن من الملذات وإحراز قدر كبير من الملذات.

كان أوغسطين حسي المذهب، والحس والإحساس "هو قسم من الإدراك وهو إدراك الشيء الموجود في المادة الحاضرة عند المدرك، مكنوفة بهيئات مخصوصة من الأين والكيف والكم والوضع وغيرها، فلا بد له من ثلاثة أشياء: حضور المادة، واكتناف الهيئات، وكون المدرك جزئيا(...)" (أوريليوس، 2011، صفحة 14)، والحس "هو القوة التي بها ندرك الإحساسات، والحواس هي آلات الحس (...) والحسي والمحسوس هو ما يدرك بالحواس، (...و) الحسي هو المنسوب إلى الحس فهو عند المتكلمين ما يدرك بالحس الظاهر، وعند الحكماء ما

يدرك بالحس الظاهر والباطن، والحسي يسمى محسوسا، ويقابل الحسي العقلي" (أوريليوس، 2011، صفحة 44)، والمدركات الجزئية والحس الظاهر هو ما كان يشغل قوى الرجل الناشطة والحقيقة هي كل ما يصدر عنها، فظن أوغسطين أنه وصل للحقيقة وبها تحققت سعادته.

السعادة تبعا للحسيين هي كل ما يرضى رغبات الجسد ويحقق لذاته الآنية السريعة، وهي نفسها السعادة عند أوغسطين، إذ كان مولعا بالماديات متلهفا لاقتناص أكبر قدر منها بأي طريقة، غير مبالي بانعكاساتها على الآخر مادامت تسعده؛ يقول "كان بالقرب من كرمنا شجرة أجاص (كمثرى) محملة بالثمار، ولكن لا لون ولا طعم لها، ورغم ذلك ذهبت بصحبة فتيان فاسقين في وقت متأخر ذات ليلة حسب عاداتنا الشريرة باللعب واللهو في الأزقة حتى أوقات متأخرة، وقمنا بهز هذه الشجرة وسرقة أحمال كبيرة منها، لا لنأكل منها بل لكي نُلقي بها إلى الخنازير لتتذوقها هي أيضا. كنا نحب أن نفعل ذلك لا لشيء إلا لأنه كان مكروها من الآخرين" (أوريليوس، 2011، صفحة 29)، إذن كان الهدف هو تحدي الآخرين وفعل كل ما يخرج عن المألوف، هو بحث من زاوية أخرى عن التحرر من قيود المجتمع، وعدم الخضوع لقوالبه والانعتاق من قيود القوانين وشرائعه هي رغبة في "الحرية " من جهة والاستماتة في الخطيئة من جهة أخرى؛ والخطيئة هي حكم يطلق على كل سلوك يحرم على الجسد لزهد بنشده، لذاته الجسدية التي يحققها، وإذا كانت الحرية هي الهدف من السرقة فإن الجمال هو المحفز لها، فالجمال هو ما يثير الجسد ويفجر شهواته يقول: "للأجساد الجميلة محاسنها وللذهب والفضة زخرفها، ولكل جميل فتنة أما لذة اللحم ففي اللمس وهكذا كل حسي يلقى في الجسد ما يوافق طبعه" (أوريليوس، شرح رسالة القديس يوحنا الأولى، 2001، صفحة 35)؛ وهذا ما يفسر إسراف أوغسطين في الزنا معتبرا أن الجمال يكمن في التناسق والتناغم الذي يحدث بين جسدي الرجل والمرأة؛ يقول: "كانت تصوراتي هي الولع بالماديات" (أوريليوس، الاعترافات، 2011، صفحة 35)، فكانت القيمة الجمالية للشيء تتحدد بمظهرها الخارجي المادي إذ لا مجال هنا لاختراق الظاهر للوصول إلى باطن الشيء أو جانبه الروحاني أو الوجداني.

1.1. أوغسطين والمانوية

في سيرورة بحثه عن الحقيقة اعتنق أوغسطين المانوية والتي أعطت المشروعية لمذهبه الحسي بل وطورته، أو ربما كان من الأساس يبحث عن المشروعية لحسيته فوجد المانوية، وأيا كانت علة البحث فقد كان الرجل باحثا حاد الذكاء منتقلا بين متون الحكمة لا يوفر جهدا للحصول على مختلف الكتب وفك شفراتها، مهما بلغت من الصعوبة ومهما أعجز أسلوب صاحبها أكفأ الأساتذة، فيخبرنا مثلا عن كتاب الفئات العشر لأرسطو يقول "وقع بين يدي وأنا لم أتجاوز بعد العشرين من عمري فقرأته وفهمته دون مساعدة من أحد؟ لقد تعلقت بهذا الكتاب جدا وكأنه شيء إلهي، حتى أن أساتذتي في قرطاجة وأمثالهم أيضا كانت خدودهم تتوهج فخرا حينما يذكر إسمه، وحينما أتداول أمر هذا الكتاب مع آخرين، كانوا يقولون إنهم بالكاد استطاعوا فهمه، وبمساعدة بعض معلمين مقتدرين لم يكتفوا بشرح ما جاء بالكتاب شفهيا، بل رسموا أشياء كثيرة من مضمونه على الرمال لتبسيطها، ورغم هذا كله لم يزيدوا شيئا على ما قد فهمته وحدي دون عون من أحد" (أوريليوس، الاعترافات، 2011، الصفحات 64-65)، لم يقتصر اطلاعه على كتب الفلسفة وحسب يقول: "لقد استطعت أن أستوعب وحدي دون مساعدة معلم، ودون صعوبة كبيرة، كل ما كتب عن الخطابة والمنطق، والهندسة، والموسيقى، والرياضيات، وأنت تعلم ذلك يا إلهي وكيف لا تعلم وأنت الذي وهبتني سرعة الاستيعاب وفطنة التمييز" (أوريليوس، الاعترافات، 2011، صفحة 65)، وعلى الرغم من تنوع الكتب التي درسها وحللها إلا أن نظرته لا تزال حسية مكتف بالمعارف الجزئية التي نتجت عنها.

وهذا ما كانت المانوية تدعو له، لكن ليس كل المانوية بل فئة "السماعين"، إذ أن مريدي المانوية يتراوحون بين صيديقين وسماعين، ولكل فئة من هاتين شعائر وواجبات تختلف عن الأخرى "فينبغي للذي يريد الدخول في الدين أن يمتحن نفسه فإن رآها تقدر على قمع الشهوة والحرص على ترك أكل اللحم وشرب الخمر والتناكح، وترك أذية الماء والنار والسحر والرياء، فليدخل في الدين وإن لم يقدر على ذلك كله فلا يدخل في الدين، وإن كان يحب الدين ولم يقدر على

قمع الشهوة، فليغتنم حفظ الدين والصديقين، وليكن له بإزاء أفعاله القبيحة أوقات يتجه فيها للعمل والبر والتهجد والمسألة والتضرع فإن ذلك يقنعه في عاجله أو آجله، ويكون صورته الصورة الثانية في المعاد" (النديم، 1997، صفحة 330)، أي أن يمارس الانسان المحب للمانوية كل نزواته ثم يكفر عنها لاحقا بخدمته للصديقين، مادام أن قلبه مازال ينبض بحب المانوية، فلا شك أنه سيزهد عن مغريات الجسد عاجلا أم آجلا لأن خدمته للصديقين وخدمتهم لهم يوميا تساعد في التأثر بهم والاقتفاء أثرهم الصالح، لكن أليس من الغريب أن يعتبر المحب للشهوات المادية، والخاضع لرغبات الجسد على حساب الروح من أتباع المانوية وفرقة من فرقها وهي الديانة المعروف عنها الزهد ونبذ المادة؟

الخطايا والآثام جزء لا يتجزأ من العقيدة المانوية فهي تؤمن بوجود إله الظلام إلى جانب إله النور، وما الخطايا التي يقوم بها الانسان سوى قوة إله الظلام التي تغلّبت على الجانب الخيّر في الانسان وخبأ دور إله النور، بالقضاء على ذرات النور المنتشرة في روح الانسان، ذرات ظلام ونور تتصارع داخل الفرد محاولة السيطرة عليه بانتشارها ومحاصرة الذرات الأخرى، لكن تبقى الغلبة الكونية لإله النور، ما دفع بأوغسطين إلى جعل "في إحدى المناقشات التي دارت مع المانويين- فاوست ينطق بالكلمات التالية: إنني أبشر أن هناك عنصرين رئيسيين هنا: الرب، والمادة، فأعزو كل ما هو شرير إلى المادة، كما أعزو إلى الرب كل قوة خير كما هو لائق به" (نفرين، 1985، صفحة 63)؛ وبانتظار أن ينتعش النور في الانسان ويحي وينهزم الشر بداخله وينحسر، أي أن يفعّل الخير ويخمل الشر، يجب أن يبقوا على مقربة من الصديقين، كيف لا وهم مخلوقات أهورمازدا "مخلوقات ملهمة جدا (روحانية) ومحبة للمعرفة وجديرة بالثناء" (الأفستا، 2008، صفحة 794)، ويؤكد ذلك أهورمازدا في حواره مع زرادشت عندما سأله هذا الأخير عن الطريقة التي تجعل أهورمازدا قريبا منا على الدوام فأجاب "مهما حدث ومهما كان دعه يُرضي ويُفرح الانسان الصالح، لكي يحميه أهورمازد من الأشرار لأن الانسان الصالح مثيل للإله أهورمازد، فعندما يقوم بفعل هذا يعني أن أهورمازدا يقوم من خلاله، المجد والطيبة لذاك الذي يُرضي الصالح، سيبقى على الأرض طويلا، وجنة ونور أهورمازدا والسعادة والطمأنينة

ستكون له" (الأفستا، 2008، الصفحات 835-836). بمعنى أن الصديقيين هم التجليات الجسمانية لأهورمازدا الروحاني بخيريتهم ونورهم، فبقي أوغسطين على مقربة منهم حتى يكفروا عنه خطاياه التي غمرت قلبه بانتظار اللحظة التي تنتقل فيها ذرات النور إلى جسمه الذي سيطرت عليه مادة أهريمان.

انخرط أوغسطين في المانوية بعد أن وجد في تعاليمها ما يجيبه عن الكثير من الإشكاليات لعل من أبرزها إشكالية مصدر الشر في العالم وأصله، بل وجد في أهريمان سبيله في تفسير ما يقوم به من شرور، وأكثر من ذلك كان يرمي عليه حمل أخطائه، لذا كان بعد كل دنس يتلوث به هو وأصدقاؤه يقول: "فكنا نبغي التطهير من هذه الأدناس، فرحنا نحمل الطعام لمن يطلق عليهم الصفوة والقدسين [الصديقين] ليصوغوا في جوفهم ملائكة وآلهة يمكننا بهم أن نتطهر" (أوريليوس، الاعترافات، 2011، صفحة 49)، فكان التطهر من شوائب أهريمان سهلة عند المانوية، تزول بمجرد خدمة الصدوقيين وكسب رضاهم، فيكفي تقديم نصيب من الطعام لصدوقي حتى تكفر جميع الذنوب والآثام وإن كانت زنا أو سرقة أو دعر، والتي كان يمارسها أوغسطين بكل رضى مادام أن هناك ربا يرمي عليه عبء الخطأ، ورب آخر يسامحه بخدمة بسيطة يقدمها لأبناء النور.

بقي الرجل مخلصا للمانوية طيلة تسع سنوات من التاسعة عشر إلى الثامنة والعشرون من عمره، اطلع فيها على كل ما كتبه وقاله أصحاب معتقده، كيف لا وهو الخطيب المفوه، القارئ النهم، الباحث عن الحكمة، إلى أن جاء اليوم الذي التقى فيه بأكبر زعماء المانشية الصديقين وهو "فستوس الميلي"، كان متحمسا لهذا اللقاء حتى يساعده على إزالة اللّبس حول كثير من المسائل التي كانت تؤرق أوغسطين، لم ينكر أوغسطين براعة فستوس الخطابية لكنه لم ينبهر بها مثل البقية كونه هو الآخر قد نال لقب أستاذ الخطابة وقبلها أستاذا في النحو، كانت سلاسة لغته وعذوبة كلماته سبيله لإخفاء ضعفه المعرفي، لكن فيلسوفنا ميّز جهله بسهولة بعد أن طرح عليه بعض الأسئلة أثناء محاضرة ألقاها بقرطاج، وجد أن إجابته فارغة المضمون يقول "وجدته جاهل تماما بالفنون الحرة، وحتى قواعد اللغة التي يعرفها اتضح أن معرفته بها معرفة عادية، كان

قد قرأ مجموعة من خطب شيشرون ومجموعة من كتب سينكا، ومجموعة قصائد شعرية متنوعة، ومجموعة من كتب المانشيين التي أعدت وكتبت جيدا باللغة اللاتينية، بالإضافة إلى ممارسته للخطابة يوميا كل هذا أكسبه مستوى خاص من الفصاحة، وزاد متعته وإغوائه بمرور الوقت لأنه جاء تحت إرشاد عقل واع وفطنة فطرية (...)وبعدما اتضح أنه يجهل مثل هذه العلوم التي تخيلت أنه بارع فيها، بدأت لا أعول عليه في تفسير الأمور التي طالما حيرتني كثيرا" (أوريليوس، الاعترافات، 2011، صفحة 73)، كان لقاء أوغسطين مع فستوس نقطة انعطاف جذرية في حياته، فبعد تسع سنوات من التبعية يكتشف أن كل ما كان يؤمن به هو محض سفسطة لا تتضمن أي قاعدة مؤسسة أو معرفة مبيّنة يقول :"ثم أدرك في نهاية الأمر، أني لم أتعلم منهم شيئا (...)ومن ثم انفض حماسي لكتابات المانشين، ولم أعد آمل في معلميهم شيئا ذي قيمة (...)هكذا، صار فستوس الذي أوقع كثيرين في فخ الموت هو ذاته الذي حل ربطي مع هذه الجماعة، دون علم أو قصد" (أوريليوس، الاعترافات، 2011، صفحة 74)، بعد صدمته في معلمهم الأكبر انكب على كتبهم يراجع ما فيها، فانصدم للمرة الثانية لأنه وجد "أن كتبهم كانت مليئة بالأكاذيب والخرافات المضجرة عن السماء والنجوم والقمر، لم أعد أعتقد أنه كان بإمكانه أن يعطيني إجابات مرضية عن ما كنت أرغب في معرفته أو يستطيع مقارنة ما كان يقوله بالحسابات والتقديرات التي قرأتها في كتب أخرى" (أوريليوس، الاعترافات، 2011، صفحة 73)؛ تسع سنوات في سجن الحواس المانوية كانت مجرد وهم، انخدع فيه الشاب المثقف السؤول.

عاش أوغسطين صدمة معرفية حقيقية بعد أن اكتشف أن تسع سنوات من المعرفة اليقينية هي محض هراء لا يقين من ورائه، كل ما كان مقتنعا به خاطئ تماما، لم يعد في ذهنه سوى الفراغ، لم يعد يدرك أين هي الحقيقة أو بالأساس ما الحقيقة وما هو طريقها وأين يجدها؟. صدمة فعلية جعلته يفقد ثقته في كل معرفة تأتيه، بل في كل معرفة قد تحصل عليها سابقا، يرجع أوغسطين السبب وراء انخداعه كل تلك السنوات إلى الحواس يقول: "أما أنا فقد اتبعت تخيلاتي وأفكاري عن الماديات والجسديات التي أنهكتني كثيرا كما لو كنت أختنق

من شدة وطأتها علي" (أوريليوس، الاعترافات، 2011، صفحة 80)، لم يقتصر شك أوغسطين على المعارف، بل امتد إلى نفسه التي خذلته كل هذه السنوات، إلى عقله الذي ظن أنه وصل إلى درجة من التعقل والحكمة تحميه من هكذا فراغات عقلية لكنه انخدع بسهولة، امتد إلى كل شيء يحيط به وبه: بذاته، فغادر أوغسطين المانوية وهو لا يعرف شيئا، مشتت الذهن باحثا لكن هذه المرة ليس عن الحقيقة بل عن أوغسطين الذي أضاعته المانوية ورمته في فضاء من العدم، أوغسطين الذي كان يتباهى بشرح أصعب الكتب الأرسطية، خدعته كتب لا تقول شيئا، فغادر المانوية وهو يشك في كل شيء.

2. أوغسطين والشكية

إنتقل أوغسطين إلى روما ومنها إلى ميلانو وهو في حالة متقدمة من الشك يقول :"إن الشك قد راودني بكل ما كنت أعتقد أنه حقيقة مؤكدة تمسك بها قلبي، فأحسست بالخزي لأنني خدعت وظللت طويلا وأنا متمسك بما كنت أعتقده أنه حقيقة مؤكدة، وهكذا كنت مثل طفل يثرثر ويهذي عن أمور مشكوك فيها، معتبرا إياها حقائق؟ ولم أدرك أنها بطلان إلا مؤخرا" (أوريليوس، الاعترافات، 2011، صفحة 87)، وكنتيجة لهذه التجربة التي عاشها أوغسطين مع المانويين وقع في مأزق ابستمولوجي عميق حول ما الحقيقة؟ وأين هي؟ وما كنهها؟ وكيفية الوصول إليها؟

الحقيقة التي اعتقد أوغسطين أنه توصل إلى الإجابة عنها طيلة السنوات المادية، لكنه خدع وهو المعروف بحدة ذكائه وسرعة بديهته، بدأ الرجل يعيش صراعا داخليا عنيفا "علّق" فيه كل حكم على أي معرفة سبق وآمن بها، بل ورفض أي معرفة جديدة يدعي أصحابها أنها الحقيقة، رفض أي معرفة دوغمائية. في خضم هذه الصراعات تعرف صاحبنا على قديس يدعى "أمبروز"، تعلق به لما رأى منه من رحابة صدر وسعة فهم، خاصة وقد عرفه على جانب آخر من المعرفة وهي المعرفة الروحية التي كان يدلل عليها ويبرهن على صحة ما جاء فيها، وعلى الرغم من كون الرجل مستمع جيد إلا أنه لم يكن يثق بكلامه ويشك فيه بعد صدمته تلك، تعرف عليه وأعجب بسلاسة طرحه وبالفكر الجديد الذي تعرف

عليه من هذا الرجل، لكن لم يثق في كلمة واحدة قالها، ولم يستأنس بنص واحد مما خطب به الناس حينها.

في هذه الفترة العدمية من حياة الرجل تعرف صدفة على الشكاك، وانجذب لفكرهم الذي عبّر عن أزمة أوغسطين المعرفية وساندها، خاصة وأن كل روادها يعايشون نفس المأزق الذي يعايشه أوغسطين، ونفس الخدعة التي انطلت على أوغسطين، فكان أن آمنوا بنفس المبدأ: نحن لا نعرف شيئا، ولا يوجد بالأساس حقيقة نستطيع أن نعرفها، فانضم إليهم لفترة قدرت بثلاث سنوات كاملة، كان يرى خلالها أن كل المعارف المسبقة لا بعضها خدعة من الغباء تصديقها، إذ كان شكه شكا كليا، يقول أوغسطين في هذا الشأن "وهو يعلمهم (يقصد أمبروز) أن ابن هذه الأم (مونيكا) يشك في كل شيء وأن الطريق إلى الحياة لا يمكن اكتشافه" (أوريليوس، الاعترافات، 2011، صفحة 87)، وكان يرى في كل الصور الخارجية أوهاما وخيالات وزيف، و يرى ذلك حتى في ذاته وحقيقة وجوده، وكعادة الرجل السؤول انكب على كتب الأكادميين يدرسها ويحلل مفاهيمها، ويتأكد من صحة أطروحاتهم وقوة براهينهم لأن عقله السوي الباحث رفض أن يستمر في حالته العدمية العبثية، رغبة منه في الخروج من تلك الأزمة الإبستمو-أنطولوجية التي عصفت بكيانه، يقول "كان الأحرى بي أن أواجه الشك" (أوريليوس، الاعترافات، 2011، صفحة 87)، وبدأ البحث محاولا إيجاد أي مخرج يساعده، كان يريد أن يعود لحالة الاستقرار الذهني التي كان يشعر بها مع المانوية، يقول "ثم وددت أن أتيقن من حقيقة أشياء لا أراها، مثلما أنا موقن من أن حاصل جمع سبعة وثلاثة هو عشرة، بالطبع لم أكن مجنونا حين رغبت في ذلك، لكن تمنيت أن أتيقن من حقيقة الأمور مثلما أتيقن من الأرقام سواء كانت أمور ملموسة ومحسوسة أو أمور روحية لم أتمكن من تصورها وفهمها مثل الأمور المادية الجسدية" (أوريليوس، الاعترافات،

2011، صفحة 88)، وكأن أوغسطين بقوله هذا قد توصل إلى معرفة وجود الأعداد والتسليم بحقيقتها فكانت بداية بحثه عن الحقيقة*.

رغبة أوغسطين الملحة في التخلص من ذلك الشك الذي اقتحمت كل كيانه وما يحيط به، جعلته يحاول مرارا الاجابة عن الاسئلة التي تعصف بذهنه في كل لحظة تمر به، لكنه كلما استكان إلى حقيقة ما أو معرفة إنتكس مجددا لأنه يستحضر في كل مرة تجربته المعرفية مع المانوية فيعود لحالته الأولى، التي يظن فيها أنه مخطىء في كل ما عرفه وتوصل إليه، ومع تكرار محاولاته وتكرار إحساسه بالخطأ، وجد أن العنصر المشترك بين كل تلك المحاولات ليس الحقيقة لأنه لم يثق بعد في أي معرفة يصل إليها هو أو توصله إليها الكتب فكل معرفة هي خاطئة، وجد أن العنصر المتكرر هو الخطأ الذي يقع فيه في كل مرة يحاول الاجابة عن سؤال ما، "فإذا قالوا: ماذا لو كنت مخطئا في طريقة استدلالها؟ أرد عليهم: حسنا، إذا أخطأت فأنا موجود، ذلك لأنه يتعذر على شخص غير موجود أن يقع استدلاله في الخطأ. وعليه بيّن بذاته أنه إذا أخطأت فأنا موجود [Sum Si Fallor]، كيف لا وكوني مخطئا يبرهن ضرورة أني موجود. وإذا افترضت جدلا إمكان وقوع إستدلالي في الخطأ، فسوف أكون أنا من وقع في الخطأ، ومن ثم فأنا على يقين من حقيقة وجودي، وأعرف أنه يتعذر علي أن أخطئ في معرفة أني موجود" (ماثيو، 1984، الصفحات 61-62)، فكانت الأخطاء الذي يقع فيها أوغسطين والتي تسببت مرارا في نكسته، كانت هي السبب في نجاته، فمادام أنه يقوم بخطأ ما فهذا دليل أن صاحب الخطأ موجود ويقوم بفعل ما، مقولة أوغسطين "إذا أخطأت فأنا موجود" يجعلنا

* وهي نفسها الفكرة التي نجدها عن ديكارت إذ يقول: "لعلنا غير مخطئين إذن في الاستنتاج أن علوم الطبيعة والفلك والطب، وسائر العلوم الأخرى التي تدور حول الأشياء المركبة هي عرضة لشك قوي، إن الثقة بها قليلة. أما الحساب والهندسة، وما شاكلها من العلوم، التي تنظر في أمور بسيطة جدا، وعامة جدا، دون اهتمام كثير بمبلغ تحقيق هذه الأمور في الخارج أو عدم تحقيقها، فهي تحتوي على شيء يقيني، لا سبيل إلى الشك فيها"، ننظر (ديكارت، 1988، الصفحات 28-29).

نستحضر مقولة "أنا أفكر إذا أنا موجود" لديكارت وكأن الكوجيطو أوغسطيني الأصل، ابتدأ براهنه بالأنا أي الذات المفكرة كمنطلق للمعرفة وأساس لها، فالذات هي منطلق المعرفة ومبدأها، ومن الانسان ينطلق شعاع العقل ليدرك باقي الموجودات ويعيها.

الذات بداية الحقيقة، ناظم لا مجال للشك فيه، فمادامت الذات تقوم بفعل ما وليكن الخطأ والشك فهذا إثبات على وجودها، يقول "الذي يشك يحيا، والذي يشك يعلم أنه يشك، والذي يشك يريد اليقين، والذي يشك يتذكر ما يشك فيه؟ والذي يشك يحكم بأن الحقائق لا يمكن أن تؤخذ مباشرة بوصفها شيئا يقينيا، ومعنى هذا كله أنه الشك أولا موجود وهو حقيقة، وثانيا أن العمليات النفسية المتصلة بهذا الشك هي أيضا حقائق يقينية، ومعنى هذا أننا وصلنا إلى إثبات وجود حقائق يقينية، ولكن هذه الحقائق معناها أيضا أن هناك ذات هي التي تشك، وهي التي تقوم بكل تلك العمليات النفسية" (بدوي، 1979، صفحة 23).

توصل أوغسطينوس أخيرا لحقيقة ثابتة، لكن الجدير بالذكر أن البرهان هنا لم يكن حسيا أو باستخدام أي آداة حسية بل كان استدلالا عقليا "أنا أشك، إذن أنا موجود"، "أنا أخطئ، إذن أنا موجود"، تخلص أخيرا من الحسية التي ورثها عن تسع سنوات من المانوية، ووجد أنها قاصرة عن الوصول إلى الحقيقة واليقين يقول: "وليس الأمر هنا كما هو بالنسبة إلى الأشياء الخارجية التي لا نستطيع الوصول إليها إلا بواسطة حواسنا، مثلا لا نصل إلا اللون بلا حاسة النظر وإلى الصوت بلا الأذن وإلى شم الروائح بدون حاسة الشم وإلى التذوق بدون الذوق وإلى معرفة الأجسام القاسية و الرخية بدون اللمس، إن الأشياء الحسية التي تعبر عنها الصور بأمانة وندركها بعقلنا وتحتفظ بها ذاكرتنا تحفزنا إلى أن نتوق إلى الحقائق عينها التي ترسمها لنا، غير أنني هنا وبعيدا عن كل وهم خيالي أو اعتباطي، على يقين من أنني كائن موجود أعرف ذاتي وأحبها وأتحدى بهذا اليقين اعتراضات الأكاديميين" (أوريليوس، مدينة الله، 2006، صفحة 43). وبعيدا عن كل المدركات الحسية والمعارف الناتج عنها كما يقول صاحبنا فإن اليقين الوحيد الذي يستطيع أن يتحدى به الشكاك ويبطل حججهم به ليس

حسيا، بل من خلال الكوجيطو وما الكوجيتو عنده سوى جملة من الاستدلالات العقلية التي أوصلته إلى الحقيقة.

يذهب الباحث المتخصص في الفكر الأوغسطيني جاريث ماثيو إلى أبعد من ذلك في تحليله لهذه الفقرة من كتاب مدينة الله يقول "في الحق هذه الفقرة بلغت من الجرأة والطموح حدا بعيدا، فهي تعقد مقارنة بين الانسان من جهة والثالوث الإلهي المقدس من جهة أخرى، (...) إذ يحاول أوغسطين في هذه الرسالة أن يشرح لنا كيف يمكن أن نتفهم حقيقة أن الله ثالوثا في جوهر واحد تفهما صحيحا اعتمادا على إدراك ثالوث النفس، بما يشتمل عليه من ذاكرة وذهن وإرادة، بوصفه ثالوثا في نفس واحدة وتقوم فكرة أوغسطين على أن في النفس ثالوثا يتألف في الذاكرة والذهن والإرادة، وهو بذلك يشبه إلى حد ما الثالوث الإلهي المقدس، ولذا لم يتردد أوغسطين البتة في القول بأن الذاكرة ليست مجرد جزء من النفس أو ملكة من ملكاتها، ونفس الشيء ينطبق على الذهن والإرادة، بل الذاكرة هي النفس" (ماثيو، 1984، صفحة 67)، فكما أن الإبن ليس الآب وليس الروح القدس، إلا أن الابن هو الله والآب هو الله والروح القدس هو الله، كذلك الذاكرة ليست الإرادة وليست الذهن إلا أن الذاكرة هي النفس حينما تستحضر ما مرّ عليها من أفكار ومعارف، والذهن هو النفس حين يفهم ما وصل إليه من معارف، والإرادة هي النفس حين تكون حرة وتقرر القول والفعل معا، تماما كما خرج السيد المسيح من الروحانية إلى التجلي في هيئة بشرية؛ هي تمظهرات ثلاث لشخص واحد، ثلاث تجليات مختلفة لكنها من أصل واحد وما الاختلاف فيها إلا اختلاف في الوظيفة أو الدور الذي يؤديه.

يعود صاحبنا مجددا لفكرة الكوجيطو ويقول: "إن أخطأت فأنا موجود، ومن لم يكن لا يخطئ، وعليه فأنا موجود إن كنت أخطىء فكيف أعتقد بأني موجود طالما أني أخطىء، ومن ثم كما أني موجود وأنا الذي أخطىء، فإن كنت أخطىء فلا شك بأني أعرف أني موجود إن لم أخطىء أبدا، وعليه لكوني أعرف أني أعرف ذاتي فلا مجال لدي للخطأ، وفي الواقع بما أني أعرف أني موجود أعرف أيضا أني أعرف ذاتي، وعندما أحب هذا الكائن وهذه المعرفة أضيف إلى ما أعرف عنصرا ثالثا وهو حبي الثابت، إذ ليس الخطأ أني أحب لأن ما أحبه

أكيد، ولو كان غير صحيح فصحيح أني أحب خطأ. وكيف ألام شرعا لكوني أحب ما هو خطأ إن لم يكن ذاك الحب حقيقة؟ وإذ إن موضوع حبي حقيقي وأكيد فمن ذا يستطيع أن يشك بحقيقة حبي وصحته؟ ما من أحد لا يحب أن يكون سعيدا، ولكن كيف يكون سعيدا من لا وجود له؟" (أوريليوس، مدينة الله، 2006، صفحة 43). والملاحظ هنا أن القديس بدأ التدرج في استخدام اليقينيات التي يعجز الشكاك عن دحضها انطلاقا من الكوجيطو أنا أخطئ إذن أنا موجود؛ فكان أن

"أعرف أني موجـــــود" ....اليـــــــــقين الأول " أعرف أني أعـــرف ذاتّـــي" ....اليقـــــــين الثـــاني

إنتقل إلى يقين ثالث مختلف عن اليقينين السابقين المتمثل في:

"حبي للحقيقتين السابقتين".......... اليقـــــــين الثالث

فحتى لو قال أحدهم أن كل ما تحبه هو مجرد وهم فإنه يثبت بطريقة أخرى وجود الحب وحقيقته.

اليقين الرابع:

- هل أنت ســــــــــــــــــعيد؟ لا أعرف.
- هل أنت غير ســـــــــــــعيد؟ لا أعرف.
- لكنك تحب أن تـــــــــــــــكون سعيدا.
- فكيف يكون سعـــيدا من لا وجود له.

تتوالى الحقائق التي استنبطها أوغسطين من ذاته والتي أطلق عليها المعرفة الباطنة، لبكت الشكاك فيقول في رسالته "في الثالوث" :"ولو أن هذه الأشياء ترتبط بمعرفة الإنسان فحسب لكنها قليلة العدد، اللهم إلا إذا قمنا بتكثيرها بحيث لا تصبح قليلة العدد، وإنما سيصل عددها إلى رقم لا متناه، ذلك لأنه حينما يقول المرء :أنا أعرف أنني أحيا، فإن قوله هذا يقتضي أنه يعرف شيئا واحدا في حين يقتضي قوله :"أنا أعرف أني أعرف أنني أحيا، أنه يعرف شيئين، وبالتالي فإن معرفته شيئين تقتضي قيام معرفة ثالثة ورابعة وخامسة وهلم جرا" (ماثيو، 1984، صفحة 71)، فما دمت أخطىء فأنا أعرف أني أخطىء وأعرف

أني أعرف أني أخطىء، وأنا أعرف أني أعرف أني أعرف أني أخطىء إلى مالا نهاية من المتتاليات الإدراكات، وبالتالي فأنا عرفت أولا إدراكات لا متناهية وبالتالي فانا أقر بوجودها، وعرفت تاليا أن هناك ما يسمى باللامتناهي، وبهذا كان الخروج من عبثية الشك وبداية اليقين بداية داخلية ذاتية باطنية عقلية، فمن خلال العقل استنبطن جملة الأسئلة التي حدّث بها أوغسطين ذاته ووصل بإجاباتها إلى اليقينيات، لكن ما مصدر هذه المعرفة الباطنية؟ وبعبارة أخرى ما هي طبيعة هذه الذات المفكرة العارفة؟

يجيب أوغسطين عن هذه الإشكالية الفلسفية الصعبة بنص مطول من كتابه "في الثالوث" يقول :"لا مبرر لنا على الإطلاق في أن ندعي معرفة شيء ما، ما دمنا نجهل جوهره، لذلك فإن الفكر [الفكر هنا موجود في ترجمات أكثر تخصصا على أنه النفس الناطقة] حيث يعرف نفسه، فإنه يعرف جوهره، وما إن يتحقق من ذاته، حتى يتحقق من جوهره والحال أنه على يقين من ذاته، ولكنه ليس على يقين تام من أنه هواء أو نار أو أي جسم آخر، أو ما يمت بصلة إلى الجسد، فما هو إذن بشيء من كل ذلك، وكل ما نطلبه منه، ونحن نأمره بالتعرف إلى ذاته، أن يكون على يقين من أنه ليس بشيء من تلك الأشياء التي ليس متثبتا منها (...) والحال أن ظنه من أنه نار أو هواء أو أية مادة أخرى غير ثابت. ويستحيل على الفكر [النفس الناطقة] استحالة مطلقة أم يدرك ما هو بالطريقة نفسها التي يدرك ما ليس هو، وهو يدرك بصورة من مخيلته كل تلك الأشياء: الهواء وهذا أو ذاك من الأجسام أو من أجزاء الأجسام ومكوناتها ومجموعاتها، وأشياء معتبرة من الروح، لا على أنها تملكها كلها، بل على أنها واحدة منها، فلو كانت واحدة منها، لأدركها الفكر على خلاف ما يدرك الأشياء الأخرى، أي لا كوهم في مخيلته (...)بل بنوع من أنواع الحضور الفعلي الداخلي وغير الوهمي، إذ لا شيء أشد حضورا لدى الفكر من ذاته بالطريقة التي يدرك بها أنه يحيا ويتذكر ويعرف ويريد، ولم يتخيلها كما لو كان يبلغها بالحواس خارج ذاته، فلا يدعين إذن لذاته وبصورة كيفية، أي ظن من هذا القبيل، ولا يزعمن أنه أي شيء من تلك الأشياء، وما تبقى له بعد ذلك من ذاته فهو وحده ما هو" (مارو، 2007، الصفحات 80-81)، فمن منطلق اليقين الثاني السابق الذكر فإن

النفس الناطقة تعي ذاتها، تعي أنها بطبيعة غير مادية، كما يرى الماديون ويعيدون النفس للنار أو الهواء أو أي عنصر مادي آخر، وليتجاوز أوغسطين هذا المأزق بدأ بتفسير طريقة تفكير النفس الناطقة في ذاته والتي تختلف إختلافا جذريا عن طريقة تفكيرها في ما هو خارج عنها، إذ أن العناصر المادية أيا كان نوعها تتطلب تدخل المخيلة حتى تعيها النفس وتتذكرها أي من خلال وسيط يقوم بتجريد الأشياء التي انطبعت عليها الحواس، جردتها من ماديتها واحتفظت بها كتصورات تستحضرها الذاكرة متى ألزمتها النفس بالحضور، وهذا يعني أن المتخيلة تستحضر كل ما نقلته الحواس إليها.

الحواس تنقل كل ما كان معرفة مادية، بعبارة أخرى المتخيلة تنقل صور الأشياء المادية، أما النفس الناطقة فلا تستدعي وسيط بل إن حضورها حضور مباشر داخلي وعليه فجوهر النفس الناطقة يختلف تمام الاختلاف عن مادية الأشياء الخارجية وهذا ما صاغه جاريث ماثيو في الاستدلال التالي:

"1-إذا كانت كل نفس ناطقة مفردة مقدارا معينا من الهواء أو النار أو أي عنصر من العناصر المادية الأخرى، فإن هذا المقدار من الهواء أو النار أو أي عنصر من العناصر المادية الأخرى يستطيع أن يكون حاضرا أمام ذاته تمام الحضور أي واعيا بذاته تمام الوعي.

2-لكن مادام أن أي مقدار من الهواء أو أية مادة أخرى لا يستطيع أن يكون حاضرا أمام ذاته تمام الحضور، أي واعيا بذاته تمام الوعي.

3-فالنفس الناطقة المفردة ليست على الاطلاق مقدارا من الهواء أو أي عنصر مادي آخر" (مارو، 2007، صفحة 86)

وصاغه مجددا بشكل مبسط في البرهان التالي:

"1-إذا كانت النفس الناطقة قد نشأت عن عنصر مادي معين، فإن من شأن النفس بمقتضى كونها حاضرة أمام ذاتها تمام الحضور، أن تفكر في هذا العنصر المادي الذي نشأت عنه.

2-لكن النفس الناطقة لا تفكر، بمقتضى كونها حاضر أمام ذاتها تمام الحضور في أي عنصر مادي.

وعلى هذا فإن

3- النفس الناطقة لم تنشأ البتة عن أي عنصر مادي" (مارو، 2007، الصفحات 87-88)، بهذا البرهان انتهى أوغسطين إلى لا مادية النفس.

تجدر الإشارة إلى الجانب الآخر من الوجود وهو الوجود المادي. أو الإشارة الى الشق الثاني من الكوجيطو: أنا أشك إذن "أنا موجود"، أي المادة التي تحوي هذه الذات المفكرة أو النفس الناطقة حتى تؤدي وظائفها المرتبطة أساسا بهذا البدن، فهي تريد وتعرف وتتذكر وتفكر، لذا لا يمكن أن نفصل الجسد عن النفس لأنه الأصل في أداء وظيفتها، فإذا كانت النفس تمثل مثولا فوريا أمام ذاتها، فإن المادة لكي تمثل لا بد من وسيط لذلك وهو الذاكرة؛ إذ أن الذات العارفة عرفت بوجود أجسام مادية خارجة عنها و سواء وصل وجودها مشوها للذات العارفة أو وصل على حقيقته فإنه موجود على كل حال فما دامت أشك في شيء (مادة) ما أو أفكر فيه أو أحبه أو غير ذلك فإنه موجود، "إذ ليس خطأ أني أحب لأن ما أحبه أكيد، ولو كان غير صحيح فصحيح أني أحب خطأ (...) وإذ إن موضوع حبي حقيقي وأكيد فمن ذا يستطيع أن يشك بحقيقة حبي وصحته؟" (أوريليوس، مدينة الله، 2006، صفحة 43)، تنتقل تلك المعارف بعد أن تنطبع على الحواس (الأذن -السمع-، الأنف-الشم-، اليد-اللمس-، اللسان-الذوق-، العين-الرؤية-) تنتقل إلى الذاكرة على شكل صور أو مشاعر ومنها تعرفها الذات، وهذا هو الفرق بين البدن والنفس؛ إذن إنهما متمايزان في الماهية تماما. وعليه البدن موجود.

بعد ثلاث سنوات من التبعية تيّقن الرجل من تهافت مذهب الأكاديميين، فراح يتحداهم في مناظرات لينقل إثباته لأتباع هذا المذهب حتى يصلوا للحقيقة. جمعها في كتابه "الرد على الأكادميين" أدرج فيها جملة من الأدلة أجد أهمها على الاطلاق التالي :"حسنا؟ فأنا أطلق على هذا الكل الذي يحتوينا ويمدنا بأسباب الحياة، كيفما اتفق -اسم العالم- وأعني بهذا الكل الذي يتبدى أمام ناظري وأدركه بسماواته وأرضه (...) وإذا سألتني، هل ما تراه حتى وإن كنت نائما هو العالم؟ فقد أجبتك بالفعل إنني أسميه العالم كيفما يتبدى لي بوصفه كذلك" يقدم أوغسطين في الفقرة السابقة وربما لأول مرة في تاريخ الفلسفة الغربية فكرة العالم الظاهر للأنا، أي العالم الذي يدركه كل إنسان فرد

بوصفه موضوعا للوعي أو مادة للذهن" (مارو، 2007، صفحة 41)، فهنا يجيب أوغسطين عن تساؤل الشكاك فيما يخص إذا كان ما يعيشه هو مجرد حلم لم يستيقظ منه بعد، فيقول أنه حتى ونحن في الحلم نسميه عالم؛ فهو موجود.

تخلص أوغسطين من حلقة الشك المفرغة، تعرف بعدها على ذاته وعلى الآخر، لكنه لم يجد بعد الحقيقة التي ينشدها أو التيار الذي يمتلكها، فاستمر في البحث وهو يعلم أن الحقيقة في مكان ما، وأن عقله هو الطريق الوحيد الذي سيوصله إليها دون شك أو خوف من خذلانه مجددا.

3. أوغسطين والأفلاطونية المحدثة

تخلّص أوغسطين من شكوكه لكن الكثير من الأفكار المانوية والشكية بقت عالقة في ذهنه ولم يجد سبيلا للتخلص منها، كفكرة الشر وطبيعة الله. فحتى وقد توصل أوغسطين لوجوده بقي جاهلا بطبيعته يقول :"واعتقدت أن كل ما لا يمتد ليشغل مساحة ما ليصير محضورا في أبعاد معينة يكون كالعدم، لم يقدر قلبي أن يتصور سوى الأشياء التي اعتادت عيناي أن تراها. ولم أفهم آنذاك أن طبيعة عقلي الذي كون هذه الصور في مخيلتي يختلف عن طبيعة وجوهر هذه الأشياء السامية العظيمة" (أوريليوس، الاعترافات، 2011، صفحة 104)، لم يخرج أوغسطين بعد من بوتقة تشيىء الله وإعطائه أبعاد مادية، إذ كان عاجزا عن الخروج من تصورات عقله الضيقة التي أوهمته أن كل ما كان خارج الفضاء الخارجي المحسوس هو عدم، وبالتالي فالله موجود ضمن هذه المادة، لكن على أساس هذا الطرح بأي صورة تجلى الله؟.

يجيب أوغسطين على هذا التساؤل بقوله :"حيث أني تصورت أن الأجزاء الكبيرة في الأرض تسع الأجزاء الكبيرة منك، والصغيرة في الأرض تسع الأجزاء الصغيرة منك، وبطريقة ما يصير الكل ممتلئ منك، فمثلا بما أن الفيل أكبر حجما، فظننت أنه يتسع للكثير منك، بعكس العصفور الصغير. بناء على طريقة تخيلي هذه كُنت تعطي الأجزاء الكبيرة منك لما هو كبير في هذا العالم والعكس صحيح" (أوريليوس، الاعترافات، 2011، الصفحات 104-105)، وهنا كان أوغسطين يدين بالتفسير الحلولي الكموني؛ إذ حسب رأيه الله حال في الطبيعة كامن فيها فكل تشكل مادي لأي موجود كان الله مادته الأولية

وهيولته أي "أن الكل داخل في الكل (...) وأن جميع عناصر الوجود تتضمن بعضها بعضا" (أوريليوس، الاعترافات، 2011، صفحة 244)، فلا يمكن وقتها أن نفصل المادة من شكلها كما لا يمكن لنا أن نفضل الدهن عن اللبن. وبهذا يأخذ الله صفة المادية "الممتدة" في الوجود؛ الله مادة.

في هذه المرحلة من التفكير لم يفلت أوغسطين الكتب من يديه بل واصل بحثه واطلاعه إلى أن تعرف على كتب الأفلاطونية المحدثة وكانت قد ترجمت إلى اللاتينية، وفيها وجد طريقا جديدا للمعرفة؛ وجد فيها بعض اليقين، تعرف عليها من خلال أمبروز الذي كان يستعين بها من أجل الرد على ناقدي الدين المسيحي ومعارضيه، فكان لزاما عليه أن يرد ردا فلسفيا حتى يتماشى ولغة العصر؛ إذ كانت الفلسفة هي لغتها، وحتى يكيف التعاليم المسيحية والبراهين الفلسفية لتجلب إليه الفلسفة أكبر قدر من المستمعين، فكانت الأفلاطونية المحدثة هي أقرب الفلسفات للمسيحية نظرا لوجود العديد من التقاطعات بينها؛ "فالأفلاطونية المحدثة في جوهرها (...) طريقة للوصول إلى وجود معقول وبناء أو وصف لهذا الوجود، وأفدح خطأ يمكن أن نقع فيه هو أن نعتقد أن الوظيفة الأساسية لهذا الوجود المعقول تفسير المحسوس، فبيت القصيد في المقام الأول الانتقال من دائرة تكون فيها المعرفة والسعادة مستحيلتين إلى دائرة تكونان فيها ممكنتين، والمشابهة التي يمكن بفضلها الانتقال من دائرة إلى أخرى، مادام المحسوس صورة للمعقول لا تكمن أهميتها في تفسيرها للعالم الحسي بقدر ما تكمن في قدرتها على الايصال إلى ما هو موجود في ذاته دونما صلة بالعالم، فحياة الآلهة في الأسطورة لا ضلع لها بعالم البشر كذلك فإن الوجود المعقول لدى أفلوطين لا يعرف العالم ولا ينزل إليه" (بروهيه، 1987، صفحة 242)، هذا ما وافق عليه أمبروز ودفع به إلى أوغسطين.

وجد الفيلسوف في الأفلاطونية ما كان ينقصه من إجابات عن الله وطبيعته، إذ فتحت له آفاق فلسفية كانت المادة قد حجبتها، فهو هنا ينتقل بذاته إلى مستوى آخر من التفكير وهو التفكير العقلاني في جواهر مفارقة للمادة، سامية، غير حالّة فيها، لا تدركها حواسه، ولن تقوى على ذلك الإدراك، ويبق أهم وأبرز تقاطع بين الأفلاطونية المحدثة والمسيحية فكرة الأقانيم الثلاثة؛ إذ

يقول أفلوطين بأقنوم واحد أول هو الله انبثق عنه الأقنوم الثاني وهو العقل هذا الأخير إنبثق عنه الأقنوم الثالث وهو النفس، يقول أفلوطين في هذا الصدد :"إذا كان بعد الأول شيء فهو من هذا الأول حتما، فإما يكون منه سواء بلا توسط، وإما أن يرد إليه بتوسط ما بين الطرفين، فيكون نظام الثواني والثوالث: فالثاني يرد إلى الأول والثالث إلى الثاني. ذلك لأنه لابد من أن يكون شيء قبل الأشياء كلها وهو بسيط" (أفلوطين، 1997، صفحة 457)، أي بين الأقنوم الأول والثاني لا يوجد وسيط فمن الأول ظهر الثاني مباشرة، لكن كيف ذلك؟

قبل أن يعالج أفلوطين هذا الإشكال حاول أن يصف الأول الواحد فيقول :"بسيط، يكون مختلفا عما يتأخر عليه، قائما في ذاته مع ذاته، ليس مختلطا بما ينبعث عنه وبوسعه مع ذلك أن يكون حاضرا إلى غيره من وجه آخر، فهو الواحد حقا، وليس بمعنى أنه كان شيئا ما أولا ثم أصبح واحدا (...) ثم إنه يفوق الأمور كلها اكتفاء بذاته بكونه بسيطا أولا. فإن لم يكن أولا كان في حاجة إلى ما قبله" (أفلوطين، 1997، صفحة 457)، والواحد هو كل شيء وليس أي شيء فهو الأصل الأول الذي لم يسبقه أول. أوجد كل الموجودات ولم يوجده آخر، منه انبثقت الموجودات وليس بموجود متعين ولا بجسم ولا بامتداد مكثف بذاته كامل، ولكن إن كان مكتفيا بذاته فما الحاجة لباقي الموجودات ولما أوجدت من البدء؟

يرى أفلوطين أنه "إن كان الأول كاملا وأكمل من الأشياء كلها، وكان هو القدرة الأولى، وجب فيه أن يكون الأقوى بين الحقائق كلها ووجب في الحقائق القديرة الأخرى، على قدر ما تكون قديرة، أن تقلده في قوته، فإن سائر الأشياء إذا أدركت كمالها، نراها تلد ولا تطيق أن تبقى مع ذاتها في ذاتها بل إنها تحدث شيئا آخر (...) فكيف يبقى في ذاته ما كان هو الأكمل وهو الوجود الأول، فكأنه يبخل بذاته (...) ثم كيف يكون الأصل بعد ذلك، لابد من أن ينشأ منه شيء، إذا ما دام شيء ينبعث من الأمور الأخرى وهي تستمد من قيامها في ذواتنا إذ أنها تستمد منه هذا القوام لا محالة(...) فالواقع هو أنه يحب في أصل الأمور المتأخرة أن يكون هو فائق الإكرام، كما أنه يحب في مولوده الأول أن يكون فائق الإكرام أيضا وهو صاحب المقام الثاني نظرا إلى الأصل

الأول وأفضل الأشياء كلها" (أفلوطين، 1997، الصفحات 457-458)، هنا يظهر تأثر أفلوطين بفيثاغورس في فكرة الواحد من جهة وبأفلاطون في فكرة الخير المطلق من جهة ثانية.

فالواحد لأنه خيّر خير مطلق انبثق ذلك الخير، ولأنه كامل كمال مطلق انبثق ذلك الكمال، والانبثاق هنا أو ما يسمى بالصدور لا ينقص من خير أو كمال الواحد شيئا، يعطي أفلوطين مثال الشمس :هي ومن شدة حرارتها تنبعث عنها أشعة ساخنة تزداد حرارتها كلما اقتربنا منها وتنقص كلما ابتعدنا عنها، أو كالثلج والذي من شدة برودته تنبعث عنه موجات باردة ازدادت كلما اقتربنا منه ونقصت البرودة كلما ابتعدنا عن الأصل، أو هو كالزهرة التي من شدة عطرها تدفقت منها رائح زكية، زادت كلما اقتربت والعكس كذلك؛ فالشمس أو الثلج أو الازهار لا تحتفظ بحرارتها أو برودتها أو عطرها بإرادتها، وإنما هو فعل لا إرادي ناتج عن خيرية الواحد.

إنبثق عن كمال الأول وخيريته الأقنوم الثاني وهو العقل أو كما يسميه أفلوطين في مواضع أخرى "الروح المفكرة"، وهو أكثر المنبثقين شبها بالواحد وبصفاته وأكثرهم قربا منه يقول: "وهنا لا بد لها من أن نزيد قولنا وضوحا. إنا نقول في الروح إنه صورة للواحد إذا، ولذلك أولا يجب في الذي ينشأ أن يكون كالواحد وأن يحتفظ بالكثير منه وأن يغدوا متماثلا معه، مثلما يكون الضوء من الشمس. ولكن الواحد ليس بروح فكيف يستطيع أن يلد الروح؟ لأن المولود يلتف إلى الوالد فيشاهده وهذه المشاهدة هي الروح بالذات، ذلك لأن ما يدرك الآخر من حيث هو آخر إنما هو إحساس أو روح" (أفلوطين، 1997، صفحة 43)؛ فالروح المفكرة صورة الواحد وشبهه لكنها ليست هو ولا يمكن لأي شيء آخر أن يكون هو وإلا ما كان الواحد.

نتجت الروح المفكرة أو العقل عن الواحد وحدث بينهما تفاعل على أساسه كان عقلا إذ ان الروح إلتفت إلى مصدر إنبثاقها وأدركته، هذا الفعل التفاعلي المتمثل في "إدراك" الأصل والتعرف عليه، هذه العملية التي حدثت هي ما جعلها روحا مفكرة، تدرك وتعقل، أخذت الروح عن الواحد خيريته وكماله، وكما حدث أولا تكرر الفعل وانبعثت الروح هي الاخرى وكان أن صدرت النفس

كأقنوم ثالث، بمعنى أن النفس صدرت عن الأقنوم أي أنها صدرت عن الأقنوم الأول ولكن بوسيط هو العقل. والنفس هنا أشبه الموجودات بالعقل ولكنها ابتعدت في الشبه عن الواحد، فكما سبق وأن ذكرنا أن الشمس كمصدر للحرارة تصدر أشعة ساخنة تنقص حرارتها كلما ابتعدنا عن الأول والنفس ابتعدت عن الواحد بمقدار أقنوم، ومع ذلك فالنفس والعقل أشبه المخلوقات بالواحد، وهنا توقف الواحد عن الانبثاق الواحدي، لتبدأ النفس في الانقسام فظهرت باقي الموجودات، يظهر الآن الشبه بين المسيحية والأفلاطونية بوضوح يقول أوغسطين :"قرأت فيها كلمات، ليس مثل هذه الكلمات الآتية بالتحديد، ولكن كان لها التأثير والمغزى عينه مدعما بعدة أدلة مختلفة: فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ، هذا كان في البدء عند الله كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان. (فيه كانت الحياة) والحياة كانت نور الناس، والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه (يو1:1-5)" (أوريليوس، الاعترافات، 2011، صفحة 113)، بعد أن تمعن أوغسطين في الفكر الأفلاطوني واكتشف ذلك البعد الجديد في المعرفة، جاء دور أمبروز ليربط بين ما تيقن منه أوغسطين وبين ما تحويه أسفار الكتب المقدسة، جاء دوره ليخبره أن الأفلاطونية لها حضور قوي في كتاب أقوى هو كتاب المسيحية، ولكن أوغسطين ليس من أصحاب العقول التي تقتنع بالكلام دون تمحيص.

4. أوغسطين والمسيحية

يقول يوسف كرم في كتابه "توهم(...أوغسطين) أنه وجد فيها العقائد المسيحية الكبرى، وهي غير موجودة بلا ريب، وإنه إنما خرج بالفلسفة الأفلاطونية لهذا السبب مما يدل على أنه كان مسيحيا بالقلب قبل أن يطلع عليها وأنه قرأها بهذا الاستعداد، توهم أنه وجد فيها القول بالكلمة (...) على أن القديس أوغسطين سيستدرك فيقول انه لم يقرأ فيها تجسيد الكلمة" (كرم، 2014، صفحة 21)، مثل هذه القراءات لفكر أوغسطين تقزم بشكل مسف مسيرة الرجل العقلية ورحلته التي كان يجهل مرساها أكان سيكون مسيحيا أو وثنيا أم كان سيتوقف عند أحد تلك المراحل الفلسفية التي خبرها، أو ربما كان سيتجاوزها لفلسفات أخرى وما أكثرها في عصره، قوله أن أوغسطين

كان مسيحيا بالقلب لهو مغالطة وسوء فهم لفلسفة الرجل، لا يخفى على أحد أن أوغسطين حمل في بداياته الكتاب المقدس إكراما لوالدته التي يحب ورغبة منه في كشف الحقيقة التي يصبو إليها ، لكنه لم يقتنع بما جاء فيه وابتعد عنه كليا، إذ أنه صار حسيا قلبا وقالبا، ونبذ أي تفسير روحي واستهزأ به، لم يذكر الرجل أبدا أنه كان مسيحيا أو يرغب في المسيحية، بدليل أنه هرب في جنح الليل من والدته وسافر إلى قرطاج، تاركا وراءه أما تلزمه بدين لا يعني له شيئ، وبقي يبحث عن المجهول وما غفل عنه القائلون بهذا الكلام أن أوغسطين عندما قال الحقيقة تكمن بداخلنا، فهو لم يقصد أنه كان يحتفظ بالمسيحية في قلبه أثناء سفره الفكري، بل كان يقصد بها الاتجاه الاشراقي الذي توصل إليه في نهاية رحلته، يقصد به المعلم الساكن فينا والذي قزمت وجوده المادة وانجرافنا حو ملذاتها، والقول أن امرأة عجوز تحكمت في شخص أوغسطينوس وفي توجهه الأخير هو أيض من المغالطات الشائعة، خاصة أن لقاء الأم وابنها كان بعد لقاء الابن بامبروز وبعد تعرف الابن بالافلاطونية المحدثة.

صحيح أن أوغسطين صرّح في أكثر من مرة أن المسيحية ليست هي الأفلاطونية ولا الأفلوطينية؛ يقول:"لم تحتوي كتب أفلاطون على كل هذا ولم تقدم صفحاته شيئا عن هذه التقوى "دموع الاعترافات" و"روح ذبيحتك التي كانت مضطربة"، "قلب منكسر ومنسحق"(مز 51: 17)، خلاص الشعوب، المدينة العروس، (أنظر رؤ 21: 2) "عربون الروح" (كو 1: 22، 5: 5)، "كأس الخلاص". لا أحد يسبح في الكتب الافلاطونية ويقول :"إنما لله إنتظرت نفسي" لأن "من قبله خلاصي، إنما هو صخرتي وخلاصي ملجأي لا أتزعزع كثيرا"(مر 62: 1-2)، ولا أحد من اتباعهم يسمع الرد وهو يقول: " تَعَالَوا إِليّ يَا جَمِيعَ المُتْعَبِينَ"(متى 11: 28)، لأنه سخروا من قوله أنه " لأَنِّي وَدِيعٌ وَمُتَوَاضِعُ الْقَلْبِ ""(متى 11: 29)، " أَنَّكَ أَخْفَيْتَ هذِهِ عَنِ الْحُكَمَاءِ وَالْفُهَمَاءِ وَأَعْلَنْتَهَا لِلأَطْفَالِ"(متى 11: 25)" (أوريليوس، الاعترافات، 2011، الصفحات 123-124)، كلام أوغسطين لا ينفي طرحنا بل ينفي صريحا أن تكون المسيحية بكل عقائدها وأفكارها هي نفسها ما هو موجود في فلسفة أفلاطون أو أفلوطين، وهذا مالم يقله أوغسطين، لأنه عندما وصل للمسيحية لاحقا وجد أن

هناك الكثير من التفاصيل والمعتقدات التي تنكرها الفلسفات أو على الأقل لم تعترف بها، وإلا كان فكر أوغسطين قد استقر بها، لكن من يستطيع أن ينكر أن الافلاطونية كانت بوابة أوغسطين نحو المسيحية، ألم تكن محرك عقل أوغسطين لاستيعاب فكرة التثليث؟ و ألم يكن أفلاطون سبب توجه أوغسطين نحو فكره الاشراقي من خلال فكرته عن التذكر.

أكد أوغسطين أن الافلاطونية ليست المسيحية لكنه قرأ "فيها كلمات ليس مثل هذه الكلمات (يقصد الانجيل) الآتية بالتحديد، ولكن كان لها التأثير والمغزى عينه مدعمة بعدة أدلة مختلفة" (أوريليوس، الاعترافات، 2011، صفحة 113)، فالأفلاطونية المحدثة كانت المرحلة التي سبقت المسيحية والتي عرف من خلالها أمبروز، من أدلتها وبراهينها، وهذا ما ميّز أمبروز عن باقي رجال الدين المسيحيين الذين التقى بهم أوغسطين، خاصة وأن أمبروز كان يعتمد على الفلسفة في إيصال الدين المسيحي، إذ كان يعتمد على التأويل في تعامله مع أسفار الكتاب المقدس وهو ما أخذه عنه صاحبنا لاحقا.

بقي أوغسطين متابعا لخطب أمبروز معجبا بفصاحته ورجاحة عقله، وكذا بأفكاره المتينة الجديدة على عالم أوغسطين المادي، على الرغم المرحلة المتقدمة من التجريد التي وصل إليها عقله الفعال، لكنه أراد أن يصل إلى مستوى من المعرفة اليقينية تعادل في يقينيتها المعارف الرياضية، وقبل أن يصل أوغسطين إلى الايمان بالأفكار الكاملة التي لا نراها، تدّرج للوصل إلى إثبات الكمال الذي لا يرى انطلاقا من الناقص الذي يرى، وفي هذا الصدد يوجه أوغسطين رسالة يقول فيها: "بداية يجب أن نقول لهؤلاء الذين بحماقتهم قد أعطوا لعيونهم الجسدية أهمية جعلتهم لا يصدقون كل ما يرون بهذه العيون: كم من أمور يصدقونها بل ويعرفونها ولكنها لا ترى بعيونهم تلك؟ هذه الأمور غير المحصاة توجد في عقولنا نفسها – مع العلم أن طبيعة هذا العقل ذاته أيضا غير مفحوصة- كالإيمان الذي به نصدق أمرا ما والفكر الذي به نحكم بأن نصدق الشيء أو لا نصدقه، بالإضافة إلى أمور أخرى كثيرة، هذه الأمور جميعها غريبة عن أنظار العيون الجسدية، وبرغم من ذلك كم هي مكشوفة وواضحة ومؤكدة لعيون فكرنا الداخلية؟ إذا كنا دون شك ندرك وجود الايمان والأفكار رغم أنه لا

يمكن رؤيتهما بالأعين الجسدية" (أوغسطينوس، الصفحات 9-10)، فالحياة ليست مجرد سلوكات وتصرفات وكذا موجودات عينية نراها ونحسها وبالتالي نستطيع أن نستدل عليها بانطباع حواسنا عليها، ويشرح الأمر في موضوع آخر بقوله :"لكن أنت يا من لا تصدق إلا ما تراه، هو ذا الماديات التي حولك تراها بعيون الجسد، ونيّاتك وأفكارك الخاصة تراها بعيون عقلك إذ هي حاضرة في عقلك، ولكن أخبرني، نيّة صديقك بأي عين تراها؟، فلا يمكن أن ترى النيّات بعيون الجسد" (أوغسطينوس، صفحة 11)، فأنت لا تستطيع أن تحدد نيّة الأخر تجاهك أو حبه لك أو كرهه، بل قد ترى بعين جسدك حبا جما، في حين أن ما يخفيه داخله كره جم، وبالتالي فعيون جسدك خدعتك وسلوكاته التي شاهدتها ليست هي الحقيقة الكامنة فيه، فلا مفر إذن من الايمان بهذا العالم الجديد من الأفكار المخفية والتي تعجز حواسي عن الانطباع عليها.

بعد أن تيقن من وجود أفكار لا تدركها حواسه، راح يفكر في أفكار يدركها العقل لكنها ليست من طبيعته، فالعقل على الرغم من قدرته التجريدية وآلياته الاستدلالية إلا أنه مثل الجسم الذي يعتبر جزء منه ناقصا متغيرا، متطورا، فانيا، عرضا ومعلولا، فاذا كان العقل يتميز بهذه الصفات فمن أين عرف صفات كالعلة والكمال والثبات، خاصة وأن الفرق بين العلة والمعلول كالفرق بين الجوهر والعرض، فان كان العقل عرضا فما مصدر فكرة الجوهر المتواجدة في العقل، وبأي عين رأيناها هل أبصرناها كما تبصر العين العالم الخارجي أو لمسناها كما تلمس اليد الموجودات، هل انطبعت عليها حواسنا؟ كيف تنطبع عليها حواسي وهي أفكار مجردة؟.

العين قاصرة عن الوصول إلى هذه اليقينيات والحقائق الأزلية، لذا لا يكفي دوما حسب أوغسطين أن ننظر لنرى فان عجزت عيني المحسوسة عن الرؤية، تدخلت عين النفس لترى، والنفس عينها العقل، وكما أن للعين نور الشمس يساعدها على الرؤيا، فكذلك وجب أن تشرق للنفس نور يساعدها على الرؤية؛ بمعنى "أن هناك نورا أزليا أبديا هو نور الشمس الذي نستطيع من خلاله أن ندرك الحقائق، وهذه الحقائق الموجودة في النفس هي فيض من النور الأول وهو الله أو بعبارة أخرى اللوغوس LOGOS أو كلمة الله" (بدوي، 1979، صفحة 25)،

فنور الله على النفس كنور الشمس على العين وهذا ما يسمى الاشراق، ويقصد أوغسطين بذلك أن المعارف اليقينية التي حلت بالعقل كان مصدرها مباشرا من النور الالهي دون أي وساطة، فالمعرفة انكشفت أمام النفس مباشرة بعد أن سقط ستار الوسطية، كشفها لنا المعلم الداخلي الساكن بداخلنا قبل حتى أن نتعلمها من العالم الخارجي فنحن حسب أوغسطين "نعقل الأشياء ولا نرجع CONSULTE في ذلك إلى كلام يطنطن من الخارج، بل إلى حقيقة حاضرة داخل النفس، وما الكلمات إلا منبه إليها. نرجع إلى المعلم الذي قيل عنه أنه مستقر في الانسان الداخلي وهو المسيح أي قوة الله الدائمة Dei Virtus والحكمة الخالدة Sempiterna، ترجع إليه كل نفس ناطقة لكن لا ينكشف لها الا بحسب قدرتها وإرادتها الحسنة والسيئة، وخطأ أحدهما ليس خطأ الحقيقة التي يرجع إليها، إذ لا يخطئ النور الخارجي بل تخطئ أعيننا الحسية، هذا النور الذي يرشدنا للأشياء المرئية بقدر ما نستطيع التمييز بينها" (أوريليوس، محاورة المعلم، 2005، صفحة 85)، وهذا ما يفسر غياب هذا الاشراق لدى البعض الآخر؛ إذ أن إرادتهم الحرة إختارت أن تخرس الصوت الداخلي بعد اختيارهم للسلوكات المنافية للفضائل التي يدعوا لها المعلم الداخلي. فالمعلم الداخلي في ذات كل واحد فينا وكل واحد بقدرته ينميه أو يقزمه وقد يعدمه، وبهذا تكون اللغة والكلمات الخارجية مجرد تنبيهات خارجية توقظ الذاكرة لتتذكر ما زرعه المعلم الداخلي في ذواتنا، كل معرفة خارجية موجودة إبتداء في ذواتها، وما عمل الحواس هنا سوى التنبيه لنتذكر.

إذا أسقطنا فكرة أوغسطين الاشراقية على ما حدث له في البستان ربما نجد تفسير لذلك الصوت الذي سمعه، صوت طفل ولا وجود لطفل، ألا يبدوا وكأنه صوت المعلم الداخلي بعد أن عادت إرادة أوغسطين إلى طريق الصلاح بمساعدة القديس أمبروز، يخبرنا أوغسطين عن الحادثة فيقول :"فجأة سمعت صوتا من المنزل المجاور لنا، لم أميّزه إذا كان صوت صبية أم صبي، يصيح ويكرر قوله هذا باستمرار" تناولها واقرأها: تناولها واقرأها فتبدل محيّ وجهي، وبدأت أصغي جيدا وأتساءل هل هذه كلمات أغنية كثيرا ما يرددها الأطفال حين يلعبون ويمرحون، بيد أني لم أكن أتذكر أبدا أني سمعت من قبل كلمات من هذا

القبيل، توقف سيل الدموع مني، ونهضت لأني فهمت أن هذا لا يمكن أن يكون سوى أمر من الله لأفتح الكتاب المقدس (...و) بشغف شديد وسريع اتجهت إلى المكان الذي كان فيه أليبوس جالسا فيه، حيث كان هذا أيضا هو المكان الذي كانت فيه رسائل بولس الرسول، فأمسكت الكتاب وفتحت وبسرعة رحت أقرأ ما وقعت عليه عيناي "13لاَ بِالْبَطَرِ وَالسُّكْرِ، لاَ بِالْمَضَاجعِ وَالْعَهَرِ، لاَ بِالْخِصَامِ وَالْحَسَدِ14.بَلِ الْبَسُوا الرَّبَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ، وَلاَ تَصْنَعُوا تَدْبِيرًا لِلْجَسَدِ لأَجْلِ الشَّهَوَاتِ"(رو13: 13-14) ولم أكن في حاجة إلى أن أقرأ المزيد لأني بمجرد انتهائي من قراءة هذه الآية حتى أشرق شعاع نور في قلبي، وانقشع كل ما بي من ظلام الشكوك" (أوريليوس، الاعترافات، 2011، صفحة 144)، صار أوغسطين بعد كل هذه التقلبات الفكرية مسيحيا ووجد الحقيقة؛ وجد اليقين.

خاتمة:

"آه الحقيقة، الحقيقة ولا شيء سواها، كم كانت أعماق نفسي حتى النخاع تلهث وراءها لتدركها" (أوريليوس، الاعترافات، 2011، صفحة 40)، شعار أوغسطين الشاب الذي تربى على البحث والكتاب، يريد أن يصل بنفسه إلى الحقيقة بعيدا عن ما كان دارجا آنذاك، وبعيدا عن الحقيقة التي ولد ووجدها جاهزة أمامه، فتنقل بين متون الفلسفة باحثا عن الحقيقة التي ترضيه وتقنعه، المتتبع لرحلة أوغسطين الفكرية يلاحظ أن الرجل كل ما انضم إلى فلسفة ما، أو توجه سرعان ما انسحب منه بعد أن يكتشف عيوبه ويجمع ثغراته فينقده نقدا لاذعا، وكل مرحلة قادته للمرحلة التي تليها بنفس الترتيب الذي أخبرنا به وهو يكتب سيرة حياته، فمن المانوية انتقل إلى الشكية ومنها إلى الأفلاطونية المحدثة والتي لم ينخرط فيها بقدر ما تأثر بأفكارها، حتى وصل أخيرا إلى المسيحية وفيها فقط أخلص، إذ لم يجد فيها عيبا واحدا أو ثغرة على الرغم من أنه درس الكتاب المقدس والكثير من كتب أباء الكنيسة ورجالها، ولم يزده إطلاعه إلا تمسكا بهذا الفكر وهذه العقيدة، قضى بقية حياته مدافعا عنها، ناشرا لها، أسقفا على رأس كنيسة بونة إلى أن توفي بها سنة 430 م مخلفا أكثر من مائتي رسالة وكتاب بين فلسفة ودين.

□

قائمة المراجع:

أفلوطين. (1997). *التاسوعة* (المجلد 1). (جيرار جهامي، المترجمون) لبنان: مكتبة لبنان ناشرون.

الأفستا. (2008). *الأفستا* (المجلد 2). (خليل عبد الرحمان، المترجمون) سوريا: روافد للثقافة والفنون.

إميل بروهيه. (1987). *تاريخ الفلسفة* (المجلد 1). (جورج طرابيشي، المترجمون) بيروت: دار الطليعة.

أوغسطينوس. (بلا تاريخ). *الايمان بأمور لا ترى*. (أسرة القديس ديديموس، المترجمون) الاسكندرية: كنيسة الشهيد جرجس.

أوغسطينوس أوريليوس. (2001). *شرح رسالة القديس يوحنا الأولى* (المجلد 4). (يوحنا الحلو، المترجمون) بيروت: دار المشرق.

أوغسطينوس أوريليوس. (2005). *محاورة المعلم* (المجلد 1). (حسن حنفي، المترجمون) بيروت: دار التنوير.

أوغسطينوس أوريليوس. (2006). *مدينة الله* (المجلد 2). (يوحنا الحلو، المترجمون) بيروت: دار المشرق.

أوغسطينوس أوريليوس. (2011). *الاعترافات* (المجلد 5). (برتي شاكر، المترجمون) القاهرة: دار النشر الأسقفية.

بولا البراموسي. (د ت). *القديسة مونيكا*. القاهرة: بطريريكية الأقباط الأرثوذوكس.

جاريث ماثيو. (1984). *أوغسطين* (المجلد 1). (أيمن فؤاد زهري، المترجمون) القاهرة: المركز القومي للترجمة.

جيو وايد نفرين. (1985). *ماني والمانوية* (المجلد 1). (سهيل زكار، المترجمون) دار حسان.

رينيه ديكارت. (1988). *تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى* (المجلد 4). (كمال الحاج، المترجمون) بيروت-باريس: منشورات عويدات.

عبد الرحمان بدوي. (1979). *فلسفة العصور الوسطى* (المجلد 3). الكويت-لبنان: وكالة المطبوعات-دار القلم.

محمد بن اسحاق النديم. (1997). *الفهرست* (المجلد 2). (إبراهيم رمضان، المترجمون) بيروت: دار المعرفة.

هنري إيريه مارو. (2007). *القديس أوغسطين والأوغسطينية* (المجلد 1). بيروت: دار المشرق.

يوسف كرم. (2014). *تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط*. القاهرة: مؤسسة هنداوي.